تفسير ابن كثير

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئمو السلاح في حال همهم وغمهم والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر { إذ يغشيكم النعاس أمنة منه } الاية وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم وكيع عن سفيان عن عاصم عن أبي رزين عن عبد ا بن مسعود قال : النعاس في القتال من ا وفي الصلاة من الشيطان وقال البخاري وقال لي خليفة : حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارا يسقط وآخذه ويسقط وآخذه وهكذا رواه في المغازي معلقا ورواه في كتاب التفسير مسندا عن شيبان عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد قال فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبي طلحة قال رفعت رأسي يوم أحد وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت حجفته من النعاس لفظ الترمذي وقال : حسن صحيح ورواه النسائي أيضا عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن أبي قتيبة عن ابن أبي عدي كلاهما عن حميد عن أنس قال : قال أبو طلحة : كنت فيمن ألقي عليه النعاس الحديث وهكذا روي عن الزبير وعبد الرحمن بن عوف وقال البيهقي : حدثنا أبوعبد ا الحافظ أخبرني أبو الحسين محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن إسحاق الثقفي حدثنا محمد بن عبد ا بن المبارك المخزومي حدثنا يونس بن محمد حدثنا شيبان عن قتادة حدثنا أنس بن مالك أن أبا طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه قال : والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعنه وأخذله للحق { يظنون با غير الحق ظن الجاهلية } أي إنما هم كذبة أهل شك وريب في ا D هكذا رواه بهذه الزيادة وكأنها من كلام قتادة C وهو كما قال فإن ا D يقول : { ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم } يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق وهم الجازمون بأن ا D سينصر رسوله وينجز له مأموله ولهذا قال : { وطائفة قد أهمتهم أنفسهم } يعني لايغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف { يظنون با غير الحق ظن الجاهلية } كما قال في الاية الأخرى { بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا } إلى آخر الاية وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الإسلام قد باد وأهله وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة ثم أخبر تعالى عنهم أنهم { يقولون } في

تلك الحال { هل لنا من الأمر من شيء } فقال تعالى : { قل إن الأمر كله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك } ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله { يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا } أي يسرون هذه المقالة عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال ابن إسحاق : فحدثني يحيى بن عباد بن عبد ا بن الزبير عن أبيه عن عبد ا بن الزبير قال : قال الزبير : لقد رأيتني مع رسول ا صلى ا عليه وسلّم حين اشتد الخوف علينا أرسل ا علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره قال : فو ا إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا فحفظتها منه وفي ذلك أنزل ا { يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا } لقول معتب رواه ابن أبي حاتم قال ا تعالى : { قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم } أي هذا قدر قدره ا D وحكم حتم لا محيد عنه ولا مناص منه وقوله تعالى : { وليبتلي ا ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم } أي يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال { وا عليم بذات الصدور } أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر ثم قال تعالى : { إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا } أي ببعض ذنوبهم السابقة كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها ثم قال تعالى { ولقد عفا ا عنهم } أي عما كان منهم من الفرار { إن ا غفور حليم } أي يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم وقد تقدم حديث ابن عمر في شأن عثمان وتوليه يوم أحد وأن ا قد عفا عنه مع من عفا عنهم عند قوله { ولقد عفا ا عنهم } ومناسب ذكره ههنا قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن عاصم عن شقيق قال : لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة فقال له الوليد ما لي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان فقال له عبد الرحمن : أبلغه أني لم أفر يوم حنين قال عاصم : يقول يوم أحد : ولم أتخلف عن بدر ولم أترك سنة عمر قال : فانطلق فأخبر بذلك عثمان قال : فقال عثمان : أما قوله إني لم أفر يوم حنين فكيف يعيرني بذنب قد عفا ا عنه فقال تعالى : { إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا ا عنهم } وأما قوله إني تخلفت يوم بدر فإني كنت أمرض رقية بنت رسول ا صلى ا عليه وسلّم حتى ماتت وقد ضرب لي رسول ا صلى ا عليه وسلّم بسهم ومن ضرب له رسول ا صلى ا عليه وسلّم بسهم فقد شهد وأما قوله إني تركت سنة عمر فإني لا أطيقها ولا هو فأته فحدثه بذلك